

تقدير الجمال

أسئلة تخطر على البال ، وليس من اليسير الجواب عنها ، مع أنها تدور في أذهاننا كلما شاهدنا الأشياء الجميلة والآثار الفنية البديعة . ماذا نعني بالجمال ؟ وهل يوجد ميزان أو موازين نرجع إليها في تقدير الأشياء الجميلة ؟ وما الدور الذي يلعبه العقل أو الذوق في تقدير الجمال ؟ وهل الجمال تعبير عن مكونات النفوس ، أو صفة من صفات الأذهان والعقول ، أو أثر من آثار الخلق والابداع ؟

ولندع هذه الأسئلة التي تضرب في الفلسفة إلى الصميم ، لنقف موقفا بسيطا يقفه كل إنسان عند ما يعجب بقصيدة من الشعر ، أو يطرب لنغمة موسيقية ، أو يتذوق أثرا من هذه الآثار الفنية في الرسم والتصوير والنحت وما إلى ذلك . إنه يقول هذا جميل ، فما هو سر الجمال ، وما موضع الإعجاب ؟

إن قلت الجمال لذة الحواس كالبصر والسمع ، فليس الأمر كذلك ؛ لأن الجمال متعة تضاف إلى الحواس ، لا لذة تستمد منها . فانت تجد لذة في تناول الطعام ، ومتعة في النظر إلى المائدة الجميلة وقد نضدت بالزهور . والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين الحيوانية والانسانية . وفي ذلك يقول أبر نصر الفارابي في الفصوص : « العمل الحيواني جذب النافع ويقتضيه الشهوة ، ودفع الضار ويستدعيه الخوف ويتولاه الغضب . والعمل الانساني اختيار الجميل . »

ولقد ذهب المحدثون من الفلاسفة ابتداء من كنت وهيكل إلى لالو وكروتشي وجيو مذاهب شتى في تفسير الجمال ، وتعليل الإعجاب به ، وبسط الموازين لتقديره ، غير أن ديلاكروا لا يرضى عن أى مذهب من هذه المذاهب ، ويعد كل واحد منها ناقصا من وجه ، صحيحا من وجه آخر .

ثم يختم كلامه بأن الفن ليس « إحساساً ، أو صورة ، أو اثتلافا في الأرواح ، أو حقيقة ، أو البصر بالمثل ، ولكنه كل ذلك ، حيث كان فيضا لقوة مبدعة مؤلفة » .

ويبدو أن مذهب أفلاطون قد أُهمل في زوايا النسيان ، أو أدرج في ذيل المذاهب ، مع أنه الفيلسوف على التحقيق ، وعنه أخذت الفلسفة الألمانية المثالية ، والعلم الحديث يأخذ بتفسيره الرياضى للكون ، بعد أن ظلت الحضارة الانسانية ترسف في أغلال مادة أرسطو وصورته حول عشرين قرنا من الزمان فلم تتقدم .

ولعلنا إذا رجعنا إلى مذهب أفلاطون في الجمال ، ثم أضفنا إليه شيئا من التعديل ، أن نكون أدنى إلى التفسير الصحيح .

يصف أفلاطون في محاوره المأدبة رحلة النفس الانسانية في طلب الجمال . وهنا نجد الالهة ديوتيميا تدل سقراط على السبل التي ينبغي على الذين ينشدون معرفة « مثال الجمال » اتباعها . فالسبيل الأول أن يقدر المرء جمال شئ واحد جميل ، ثم يتدرج إلى مرحلة ثانية يقدر فيها جمال عدة أشياء ويلحظ ما بينها من مشاركة . والمرحلة الثالثة تقدير الجمال المعنوى ، الذى يخلو من علائق المادة ، كالجمال فى الأنظمة والنواميس .

وهذا كله لا يكفى فى بلوغ المثال ، أو على حد تعبير أفلاطون فى « البصر بالتال » إذ لا بد من دراسة عميقة لفرع من فروع المعرفة اليقينية ، هى الرياضة بأقسامها : الحساب والهندسة والفلك . ولن يبلغ الفنان التال بالذات إلا إذا امتلك ناصية العلم الرياضى . ومن المأثور عن أفلاطون أنه كتب على باب مدرسته « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » . ويرى الفارابى فى كتاب تحصيل السعادة ، أن أول أجناس الموجودات التى ينظر فيها الانسان علم الحساب والهندسة وما يلحق الأعداد والأعظام والأشكال من « خاصة التقدير ، وجودة الترتيب ، وإتقان التأليف ، وحسن النظام » . كيف ينتقل الانسان من مشاهدة الأشياء الجميلة ، ودراسة الحساب والهندسة إلى البصر بالتال ؟ هنا نجد أفلاطون يلبس مسوح المتصوفة

فيحدثنا بأن اشتغال النفس بالدرس والطلب يؤدي إلى مكافأتها بأشراق نور المثال كما يندلع اللهب من النار . فالتحصيل شرط ، والبصر بالمثال إلهام .

وإذا رجعنا إلى نظريات المحدثين من علماء النفس وما حققوه في كلامهم عن الابداع في الفنون وجدنا بينهم وبين مذهب أفلاطون شبها كبيرا . وجملة ما يذكرونه أن الأثر الفني ، إبداعاً كان أو تقديراً ، تجسيدا أو تفكيراً ، يمر في أربع مراحل : الاعداد والحضانة ، والأشراق ، والتنفيذ أو التحقيق . والاعداد يشبه مرحلة الدرس والتحصيل عند أفلاطون . ويعزو علماء النفس إلى فترة الحضانة أهمية خاصة ؛ إذ أن الفكرة تنحدر من الشعور إلى اللاشعور ، وتظل كأمنة ، ولكن العقل يصرفها ويقلبها دون وعي من صاحبها . ولهذا كانت أعظم أعمال العباقرة ما جاءت بعد فترة من الكسل ، أو الراحة بعد الكد والتعب . ثم تبرز الفكرة الجديدة ، أو صورة العمل الفني ، أو هذا المثال الذي يحكى عنه أفلاطون ، وكأنه — كما يقول الفريد دي موسيه — « مجهول يهمس في آذاننا » . وهكذا يحصل إلهام الفنان ، ووحى الشاعر ، واختراع العالم .

ويشبهون هذا الإلهام أو الوحي بطفرة ينتقل فيها العقل بعد الاعداد والدرس إلى الكشف ، وهي طفرة تستند إلى العلم السابق ، ولكنه لا يقتضيها بالضرورة . ولهذا يلجأ العلماء إلى التحقيق حتى يتثبتوا من هذا الكشف .

والخلاصة عند أفلاطون أن الجمال ، ابتكاراً كان أو تقديراً ، فهو نوع من الكشف عن مثال الجمال ، نصل إليه بالمعرفة ، ونهتدى إليه بطول الخبرة والممارسة . وبعد فإن تقدير الجمال لا يرجع إلى الذوق والوجدان ، بل إلى « المعرفة » . فالجمال على ذلك موضوعي لا شخصي .

أي إن الميزان في تقدير الأشياء الجميلة ميزان خارجي مستمد من طبيعة الأشياء نفسها ، فلا يقوم على هوى الشخص أو مزاجه .

فإذا كنت تريد أن تحكم بين أبي تمام والبحتري ، أو بين شوقي وحافظ ، أيهما أعلى شعراً وأصدق فناً ، فلا بد أن تكون على علم وثيق بالشعر ولماوازينه ، ثم لا يكفي أن تحفظ علم العروض ، بل ينبغي أن تمارس النظم حتى يصير

الشعر عندك ملكة أو عادة ، وعندئذ فقط تهتدى إلى « مثال الجمال » في الشعر ، حتى إذا نظرت في قصائد الشعراء ، ووجدت أنها تطابق هذا المثال الموجود في ذهنك ، كانت جميلة ، وإذا وجدت أنها تبعد عن هذا المثال كانت قبيحة .

وغيره من هذا المذهب أنك لا تصلح حكماً بين الشعراء إلا إذا كنت شاعراً ، ولا ناقداً لصورة زيتية إلا إذا كنت رساماً ، ولا بصيراً بالألحان إلا إذا كنت موسيقياً . ولهذا السبب يختصم الناس إلى النقاد والفنانين والخبراء . ومع ذلك فقلما تجد اتفاقاً بين النقاد على جمال شئ يحكمون فيه ، لا لأن المثال يعوزهم ، بل لأنهم قد يرجعون إلى الذوق والعاطفة .

أما الجانب الآخر في مذاهب الجمال ، فهو الذي يعتمد في التقدير على الشخص . وعلى رأس المتطرفين في المذهب الشخصي تولستوى ، وله كتاب مشهور عنوانه « ما هو الفن ؟ » انتهى فيه إلى أن قيمة الأثر الفني ، شعراً كان أو تصويراً أو لحناً أو تمثلاً ، إنما يعتمد اعتماداً تاماً على تأثيره في أشخاص الناظرين إليه . الفن في رأى تولستوى هو نقل الانفعالات والعواطف . فالقصص الذي يروي قصة ، والموسيقى الذي يؤلف لحناً ، والرسام الذي يخرج صورة ، إنما يرسمون جميعاً إلى تسجيل انفعالاتهم التي أحسوا بها ، ونقلها عن طريق هذه الآثار الفنية إلى الناس ؛ وهذا هو الفن : تأثير ، ثم تعبير ، ثم تأثير . وميزة الفنان أنه أقدر من غيره على التعبير . سئل أحدهم لماذا كان المتنبي أعظم الشعراء ؟ فأجاب : « لأنه يحكى عن خواطر الناس . »

وينبغي أن يرمى الأثر الفني إلى الجمال فقط ، فإذا جمع بين الجمال واللذة لم يكن فناً سامياً . فإذا أخذنا بمذهب تولستوى وأردنا أن نصب الميزان للحكم على لحن أو قصيدة أو صورة ، فعلياً أن نعرضها على الناس ، ثم نعد كم شخصاً أعجبوا ، واهتروا ، وتأثروا . ذلك لأن الجمال ليس موضوعياً أو مستمداً من طبيعة الآثار الفنية ، بل الجمال صفة للتأثير الحادث في نفوس الذين يشاهدون الآثار الفنية . فالجمال تجربة شخصية ، ووظيفة الفنان أن يبرز الاحساس بالجمال في أعين الناظرين .

وهذه مثالية حادة تشبه ما يقوله أنصارها من أن الحرارة ليست صفة في النار ، بل هي التأثير الحادث من النار في الحواس .
ولعمري إن هذا المذهب يجعل من الفن شيوعية ، ويرد أحكام الجمال إلى العامة والجمهور ، فينزل بقدره ، ويهبط بمستواه ، ثم يرد التقدير إلى الكم والعدد ، لا إلى الكيف والقيم .

والمذاهب الشخصية هي التي تسود حضارة اليوم . ففي الفلسفة تجد الوجودية ، وفي الأخلاق النفعية ، وفي الفن الاحساس الشخصي . وقد عدل بعضهم عن هذه الذاتية الصارخة ، وجمع بين وجدان المشاهد وموضوع الأثر الفني . ويقولون في ذلك إن ما نسميه الجمال هو راحة الانفعال . فنحن عند ما نحكم على شيء بأنه جميل ، إنما نعني أن بعض النوازع النفسية قد برزت عند مشاهدة هذا الشيء إلى حالة من التوازن أو الانسجام الوجداني . فإذا حدث هذا الانسجام ارتاحت النفس ، وسلّمت بوجود الجمال فيما تشاهده . وحاصل هذا المذهب أنك تخلع نفسك وإحساسك على العالم الخارجي .

ويقوم هذا المذهب في الواقع على أساس من علم النفس . فالإنسان مركب من دوافع بعضها فطري وبعضها مكتسب . وهذه الدوافع تكون عادة متنافرة وفي صراع دائم ، ومن الخير تنظيمها وتأليفها ، بحيث يتسنى لكل دافع نفساني أن ينطلق في حرية بدون أن يتنازع مع غيره من الدوافع . فإذا حدث التنظيم التام للدوافع أحسنا بالجمال في الأشياء .

على أن المذاهب الشخصية لا تستطيع أن تثبت طويلاً أمام النقد . ففي الأشياء عناصر موضوعية لا غنى عنها ، ولا يمكن إغفالها بحال من الأحوال . هل تستطيع أن تقرض شعراً غير موزون ؟ إن البيت المكسور ليفسد القصيدة ، والحن يسيء إلى الكاتب ، والجهل بتشريح الجسم يجعل المثال عاجزاً .

ويبدو أن الذين يأخذون بالمذاهب الشخصية يخطئون في تقدير الجمال بين الوجود والعرفة . إنهم ينكرون وجود الشيء الجميل وتأثيره في النفس ، ولا يعترفون إلا بانفعالاتهم وعواطفهم ، وتوافق هذه الانفعالات وانسجامها . فان قالوا : نحن لا ننكر وجود الأشياء الجميلة ، قلنا إذن لها في ذاتها خصائص

تجعلها جميلة . والخلاف بيننا وبينهم في « معرفة » هذه الخصائص . فالخروج على قواعد الموسيقى يجعل اللحن متنافراً بتمجحه الاسماع .

الجمال إذن تناسب وتوافق في الأشياء ذاتها . ونحن لانحس الجمال إلا عند ما ندرك هذا التناسب ، ونميزه ، ويكون حاضراً في الذهن كالمقياس أو الميزان . وهذا هو المذهب الذى أوثره .

في كل شئ جميل مادة وصورة كما يذهب أرسطو . مادة الشعر المعانى والألفاظ ، وصورته الأوزان . ومادة التصوير الألوان ، وصورته التأليف في انسجام . ومادة الموسيقى الأصوات والأنغام ، وصورتها الزمان . هذا الجانب الصورى لا غنى عن معرفته والخضوع له ، وهو الذى نسميه مثال أفلاطون . فالترتيب ، والتتابع ، والانتظام ، وحسن التأليف ، وضبط الايقاع ، ولطف التداخل بين الأجزاء ، ووحدة الشئ في وضوح وانسجام ، هذا كله مصدر الجمال .

والمرجع فيما ذكرنا إلى الاحساس بالزمن وإدراك قيمته . ولا يعيننا أن ندخل في قضية الزمان أنفسانى هو أم طبعى ، وإنما الذى يعيننا أن نقرره هو أن إدراك الزمن المنقسم ، والايقاع المنتظم ، والتوقيت المؤتلف ، هو السرفى الجمال . في حفيف أوراق الشجر اهتزازات لا تحتلط في تنافر ، بل تناسب في انسجام . فأنت تجد الجمال في أمواج البحر التى تغمر الشاطئ ثم ترتد عنه ، ثم تعود إليه ، وهكذا . وتجد الجمال في مشية المرأة لأنها تخطر وكأنها ترقص . والرقص مشية تجرى مع الزمن المنتظم .

وكما أردنا أن نعبر عن إعجابنا بشئ جميل قلنا : لقد جعلنا نهتز طرباً ، أو نرقص طرباً .

فلا عجب إذن أن يكون مرجع تقدير الجمال إلى الاحساس بالزمان ، وإدراك ما ينطوى عليه من تناسب وانسجام .

فاذا سلمت معى بهذه المقدمات ، كان من العسير بعد ذلك أن تؤمن مع الفلاسفة القائلين بأن « الفن حرية » ؛ إذ كيف يصح أن تجرى الفنون الجميلة طبقاً لأوضاع ونظم ، أكثر الناس التزاماً لها هم الفنانون أنفسهم حين

يبدعون الأشياء الجميلة ، أو النقاد الذين يحكمون على هذه الآثار ، ثم يقال بعد ذلك إن الفن حرية ؟ إن كنت تقصد أنها حرية كحرية العصفور السجين في القفس يتنقل فيه من جانب إلى آخر ، فلك أن تسمى هذه الحركة حرية . ولك أن تقول إن من يسعى إلى إدراك الجمال ، إنما يسير حرًا حتى يعثر على هذا النظام البديع ، فيدركه ، سواء أكان من إبداع الطبيعة أم من خلق الانسان ، ثم يجد لذته في الاستمتاع بهذا النظام وما فيه من جمال . وهنا نجد الفلاسفة يقولون إن عين الجمال أصدق نافذة نطل منها على سر الكون ومكنونات الطبيعة . ومن أقوال هيغل : « إن آثار الفنون ليست مظاهر بسيطة ، وإنما تتطوى على الحقيقة أكثر مما تنطوى عليه مظاهر الموجودات في هذا الكون . ذلك أن العقل يجد مشقة في النفاذ إلى باطن الطبيعة ولا يشق عليه النفاذ إلى صميم آثار الفنون . »

والسرفي ذلك أن صاحب الذوق الجميل يبصر صور الأشياء ، وعلاقتها بعضها ببعض ، ويميز حقيقتها الباطنة ، ثم يعربها عن علائق المادة التي تشوبها ، ويعبر بعد ذلك عن هذه الصورة المجردة التي أبصرها في الأشياء الطبيعية والاجتمع الانساني : في تمثال ، أو صورة زيتية ، أو قصيدة من الشعر ، أو قصة أدبية .

ومن هنا صح لنا أن نقول إن الفنون الجميلة نوافذ نطل منها على الحقيقة .

أحمد فؤاد الأهواني